﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [فصلت: 14]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تفصيلٌ لما جرى لعادٍ وثمودَ بعد التَّنويه به وإجماله

بعد أن توُعِّدَ كُفّار قريشٍ في الآية السّابقة بعذابٍ يستأصلهم كالعذابِ، الَّذي استأصلَ عادًا وثمودَ، فصَّلت هذه الآياتُ ما جرى لهم، وأخبرت عن حالهم مع رسلهم، فقالت: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ إلى آخر الآيات، فهي تفصيلٌ بذكر المسبَّب بعد الإجمال.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ (يدي) أصلٌ يُطلَق على الجارحة المعروفة في الإنسان وغيره، ويُستَعار في المِنَّة، فيقال: له عليه يدٌ، ويُجمَع على: الأيادي واليديِّ، واليد أيضًا: القوَّة، ويُجمَع على الأيدي[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص: 45]، إشارةً إلى القوَّة الموجودة لهم[2]، ومعنى قول الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، مِن جهة أيديهم، أي: أمامَهم، تمثيلًا لحرص الأنبياء على هدايتهم[3]، أو المراد ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، "أي: مِن قَبلِهم، يعني: الرُّسُلَ الَّذين أُرسِلوا إلى آبائهم"[4].

2) ﴿خَلْفِهِمْ﴾ (خلف) يدلُّ على أصولٍ ثلاثة، أحدُها: أن يجيءَ شيءٌ بعد شيء يقوم مقامَه، كما يُقال: فلان خَلَفُ صِدْقٍ مِن أبيهِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يد).
(2) الراغب، المفردات: (يد).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 253.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 25/ 318، 319.

وخَلَفُ سَوْءٍ مِن أبيه[1]، فالمُراد به في قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، أي: ومِن بَعدِ الرُّسل الَّذين أُرسلوا إلى آبائهم، والمقصود هودٌ وصالحٌ، فهما الرُّسل الَّذين أُرسِلوا إليهم[2]، ويدلُّ الخاء واللّامُ والفاء أيضًا على أصلٍ آخرَ هو خلاف قُدّام[3]، فيكون معنى قول الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، أتَتْهم رسلُهم من أمامِهم ومِن خلفِهم؛ تمثيلًا لحرص رسولِ كلٍّ منهم على هداهم، بحيث لا يترك وسيلةً يتوسَّل بها إلى إبلاغهم الدّينَ إلّا توسَّل بها[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ حال قوم عادٍ وثمودَ، من تكذيبهم الرُّسُلَ، وسببِ تكذيبهم

أرسل الله تعالى إلى عادٍ وثمودَ رُسُلًا مُتَوالين يَتبَع بعضُهم بعضًا، فأتَوهم مِن كلِّ جانب، واجتهدوا في هدايتهم، فلم يرَوا منهم إلّا العتوَّ والإعراض، وكانت دعوتُهم جميعًا واحدةً: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، أي: يأمرونهم بالإخلاص لله، وينهَونَهم عن الشِّرك، فرَدّوا رسالتَهم، وكذَّبوهم، و﴿قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾، أمّا أنتم؛ فإنَّما أنتم بشرٌ مثلنا، ثمَّ أكَّدوا عليهم إعراضَهم، وقالوا: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، وهذه الشُّبهة لم تزل متوارَثةً بين المكذِّبين من الأمم، وهي من أوهى الشُّبَه، فإنَّه ليس من شرط الإرسال أن يكون المُرسَل مَلَكًا، وإنَّما شرط الرِّسالة أن يأتيَ الرَّسول بما يدلُّ على صِدقه[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصلِ الآية:

التَّعليلُ والتَّفصيل لتقريب الاعتبار، وزيادةِ الإنذار

قول الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾ جملةٌ تعليليَّة؛ لما ذُكر في الآية السّابقة من التَّوعُّد بصاعقةٍ مثلِ صاعقةِ عاد وثمود، وهي

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 25/ 319.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 253.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 746، والقاسمي، محاسن التأويل: 8/ 329.

أيضًا جملةُ بدايةِ تفصيلٍ؛ لما أُجمِل في الآية السّابقة من التَّوعُّد المذكور، ولهذين السَّببين - التَّعليلِ والتَّفصيل - فُصِلتِ الجملةُ عمّا سبقها، فبينهما كمالُ اتِّصالٍ، وتعليلُ الوعيد في الآية السّابقة، مع تفصيلِ ما أُجمل فيها: أدعى إلى الخوف والحذر، والعِظة والاعتبار.

دلالة ﴿إِذْ﴾:

﴿إِذْ﴾ في قول الله تعالى ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾ ظرفٌ للماضي في الآية السّابقة، متعلِّقٌ بالصّاعقة الثّانية، والمعنى: (أنذرتُكم صاعقةً مثلَ صاعقتِهم حينَ جاءتْهُمُ الرُّسل)[1]، وظرفيَّة ﴿إِذْ﴾ لا تنافي علِّيَّةَ جملتِها لما سبق؛ لأنَّ الزَّمان الطَّويل يجوز نسبة ما وقع في جزء منه إليه[2].

تكذيبُ الرُّسلِ وقتَ مجيئهم علَّةٌ لحُلول العذاب

سرُّ إيثار المجيء:

أوثِر التَّعبير بالمجيء دون التَّعبير بالإتيان في قول الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾؛ للتَّأكيد على حصول مجيء الرُّسل إلى أقوامهم وإنذارهم، فالإتيان قد يُقال باعتبار القصد، وإن لم يكن منه الحصول، والمجيء إنَّما يُقال اعتبارًا بالحصول[3].

تحقيقُ بلوغ الدَّعوة للأمم السّابقة

دلالةُ صيغةِ ﴿جَآءَتْهُمُ﴾ وعودُ الضَّميرِ فيه:

الضَّميرُ في قول الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾ يعود إلى ﴿عَادٍ وَثَمُودَ﴾ في الآية السّابقة، وجمعه إنَّما هو باعتبار عددِ كلِّ قبيلة منهما[4]، وعُبِّر بفعل المجيء ماضيًا؛ للدَّلالة على تحقُّق مجيئهم، مضمَّنًا الفعل معنى التَّبليغ؛ والمعنى أنَّهم جاؤوهم، وأبلغوهم رسالة ربِّهم.

أبلغتِ الرُّسُلُ دعوةَ ربِّهم إلى أفرادِ قومهم

سرُّ جمع الرُّسل وتعريفِه بـ(أل):

جُمِعَ لفظُ الرُّسل في قول الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾، معَ أنَّ الكلام عن قبيلتَي عادٍ وثمودَ، والَّذي جاءهم رسولان فقط، هما

دعوةُ الرُّسُل إلى التَّوحيد واحدة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 253.
(2) الشربيني، السراج المنير: 3/ 510.
(3) الراغب، المفردات: (جاء).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 253.

هودٌ وصالحٌ عليهما السلام، فـ(أل) في الرُّسل عهديَّةٌ، راجعةٌ إليهما، ويجوز إطلاقُ صيغة الجمع على الاثنين، كما في قول الله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: 4][1]، وعلَّة الجمع هنا أنَّ مجيء رسولٍ واحد كأنَّه مجيءٌ لجميع الرُّسل، وتكذيب رسولٍ واحد تكذيبٌ لجميع الرُّسل، كما قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشعراء: 123]، وقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الشعراء: 141]، فرسالةُ المرسلين واحدةٌ مع اختلاف أعيانهم وأزمانهم، فجميعهم جاؤوا بالتَّوحيد آمرين به داعين إليه، ولذلك كان من أركان الإيمان الإيمانُ بجميع الرُّسل، كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: 285].

معنى ﴿مِنۢ بَيْنِ﴾:

﴿بَيْنِ﴾ في قول الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ ظرفُ مكانٍ، وقد استُعير هنا للزَّمان[2]، والمعنى: (مِن قَبلِهم)؛ وذلك لأنَّ النَّذيرَ الأوَّل نذيرٌ لكلِّ مَن أتى بعده، بأنَّه إن واقع ما واقعه؛ أتاه ما عُذِّب به، فتضمَّن ذلك تحذيرَهم ممَّا حاق بالَّذين من قَبلِهم حين خالفوا الرُّسل، ودخول حرفِ الجرِّ ﴿مِنۢ﴾ عليه، الدّالِّ على ابتداء الغاية، عِلَّتُه أنَّ الرُّسل إنَّما أتت بالفعل في بعض الزَّمان[3].

تحذيرُ المخاطَبين ممّا حاق بمَن قَبلَهم لمّا أعرضوا عن المرسَلين

نكتةُ التَّعبير بالأيدي مجموعًا:

عبَّر بلفظ الأيدي مجموعًا في قول الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾؛ لأنَّه إخبارٌ عن جميع أفراد القبيلتَين، فالمرادُ بقوله: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: مِن قَبلِهم، "يعني: الرُّسلَ الَّذين أُرسلوا إلى آبائهم"[4]، وقد علموا أخبارهم، واطَّلعوا على ما حلَّ بهم

جميعُ أفراد القبيلتَين يعرفون ما حلَّ بمَن قَبلَهم من العذاب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 253، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 138.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 362.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 159.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 25/ 318، 319.

جرّاءَ التَّكذيب والمعاندة، فكان شأنهم حاضرًا بين أيديهم، وخبرُهم معلومًا، حتّى لكأنَّهم شاهدوا عذابهم بأعينهم.

سرُّ الإطناب في الآية:

إرادةُ معنيَي الجلاء والخفاء علَّةُ اصطفاء التَّعبيرين

لم يُعبَّر بالأمام بدلَ قولِ الله: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ لأنَّ الأمامَ يدلُّ على الحاضر المشاهَد، وعلى القادم الَّذي يمكن دَرَكُه، وليس هذا هو المقصود، وإنَّما المقصود الكنايةُ عن الجلاء والظُّهور، في مقابل التَّعبير بالخلف ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾؛ للكناية عنِ الخفاء، وكذلك التَّعبير بالخلف وإيثاره على غيره كـ(وراء)، أو (بعد)؛ إذ ليس المقصودُ منه الخلفَ الَّذي هو مقابل للأمام، ولكنَّه الَّذي خفيَ عنهم من أخبار السّابقين المعاندين للرُّسل، وكيف كان عذابهم، بحسب ما تفيده الكناية في التَّعبير بالخلف.

وجه العطف بالواو:

استنفذَ الرُّسلُ كُلَّ سبلِ الإرشاد، ودَعَوا قومَهم إلى الإيمان بالله ورُسُله

الواو في قول الله تعالى: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ عاطفةٌ للجملة بعدَها على الجملة الَّتي قبلها - وهي جملة: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ - للجمع بينهما، لدلالتهما معًا على استنفاذ جميع الجهات والسُّبل المبذولة في سبيل دعوتهم إلى الدّين الحقِّ، أو المراد استغراق الزَّمان الماضي ما يعلمونه منه، وما لا يعلمونه، وكذلك الزَّمن المستقبل، ووجه مجيء الرُّسل إلى عادٍ وثمودَ مِن بَعدهم: أنَّ هودًا وصالحًا جاءاهم داعيَين إلى الإيمان بهما وبجميع الرُّسل الَّذين جاؤوا من قَبلِهم، وبجميع الرُّسل الَّذين يأتون من بعدهم، فكأنَّ الرُّسلَ جميعًا قد جاؤوهم[1].

بلاغةُ الكناية في الجملة:

جاءتهم رسلٌ يعرفونهم وآخرون كثيرون

في قول الله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ كنايةٌ، وذلك أنَّه لمّا كان حُضور الأخبار كأنَّها مشاهدةٌ؛ قيل: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ كنايةً عن الجلاء والظُّهور، وقيل: ﴿وَمِنۡ

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 191.

خَلْفِهِمْ﴾؛ كنايةً عن الخفاء[1]، أي: ما لا يعرفونه من أنواع العذاب الأخرى الَّتي حلَّت بسابقيهم، أو حلَّت بغيرهم ممَّن لا يعرفونهم، كالأمم الَّتي كانت بعيدةً عنهم، ولم يطَّلعوا على أخبارهم.

جاءتهم رسلٌ مِن قَبلِهم ومن بعدِهم

ويحتمل أن يكونَ المراد بالَّذين (من خلفهم): مَن سيأتون مِن الرُّسل بعدُ في المستقبل، في مقابلِ الَّذين ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: الرُّسل الَّذين مَضَوا في الزَّمن الماضي.

جاءتهم رسلٌ فبَلَغوا أقصى الجُهدِ في دعوتهم

ويحتمل أن يكونَ مجموعُ التَّركيب: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ بجهتَيهِ المذكورتين كنايةً عن جميع الجهات، والمرادُ بإتيانهم من جميع الجهات: بذلُ الوُسع في دعوتهم على طريق الكناية[2].

بلاغةُ الاستعارة في الجملة:

لم يترُكِ الرُّسُل السّابقون ولا اللّاحقون وسيلةً لهدايةِ قومهم

يحتمل التَّركيب: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أن يُخَرَّج كذلك على الاستعارة التَّصريحيَّة، بأن يكون قوله: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ مستعارًا للزَّمن الماضي، وقوله: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ مستعارًا للزَّمن المستقبل، بجامع أنَّ كلَّ حادثٍ محتاجٌ إلى الزَّمان والمكان[3]، أو هي استعارة تمثيليَّة، فيها تمثيلٌ لحرص رسولِ كلٍّ منهم على هداهم، بحيث لا يترك وسيلةً يَتوسَّل بها إلى إبلاغهم الدّينَ إلّا توسَّل بها، فمثَّل ذلك بالمجيء إلى كلٍّ منهم تارةً من أمامه، وتارةً من خلفه، لا يترك له جهة، كما يفعل الحريص على تحصيل أمرٍ أن يتطلَّبه، ويُعيد تطلُّبَه، ويستوعب مظانَّ وجوده أو مظانَّ سماعه، وهذا التَّمثيل نظيرُ الَّذي في قوله تعالى حكايةً عن الشَّيطان: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [الأعراف: 17][4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 159، والشربيني، السراج المنير: 3/ 510.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 362.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 17/ 139.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 253.

توجيهُ المتشابِه في ذِكر الجهات:

الاقتصارُ على ما يحصُل به مقصودُ الآية

اقتُصِر في هذه الآية على جهتين، وهما الأمام والخلف في قول الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، ولم تُستوعَب الجهاتُ الأربعُ، كما جاء في تمثيل وسْوَسة الشَّيطان: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [الأعراف: 17]؛ لأنَّ المقصودَ هنا مجرَّد تمثيل الحرص، وقد حصل هذا المقصود؛ أمّا في الأعراف؛ فالمراد تمثيلُ الحرص مع التَّلَهُّف؛ لإثارة بغض الشَّيطان في نفوس النّاس، وليحذروه، ويتَّخذوه عدوًّا[1].

دلالةُ ﴿أَلَّا﴾:

دعوةُ الرُّسُل إلى البشر واحدةٌ، وهي أمرُهم بتوحيد الله في عبادته

الأرجح في (أن) من قول الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أن تكونَ مفسِّرَةً لمجيئِهم؛ لأنَّ مجيءَ الرُّسُل إليهم يتضمَّن معنى القول، أي: جاءتهم مخاطبةً، و(لا) ناهيةٌ، والجملة بعدها هي جملة النَّهي، أي: إنَّ رسالةَ جميعِ الرُّسُل واحدةٌ، وهي نَهيٌ من أُرسِلوا إليهم عن عبادة غيرِ الله تعالى، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: 36][2].

دلالةُ المضارِعِ المجزوم:

توحيدُ الله حقٌّ دائم على عباده

صيغةُ الفعل المضارع المجزوم بـ(لا) النّاهية في قول الله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ تدلُّ على استمرارِ النَّهي عن عبادة غيرِ الله تعالى، فهو حقٌّ الله على عباده مدى حياتِهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: 99].

فائدةُ الاستثناء بـ﴿إِلَّا﴾:

لا معبودَ بحقٍّ إلّا الله تعالى

﴿إِلَّا﴾ في قول الله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أداة حصرٍ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 253.
(2) السمين، الدر المصون: 9/ 515، 516، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 253.

والجملة حصرٌ وقصرٌ، والحصر بالنَّفي والاستثناء هو أقوى طرقِ القصر، وحُقَّ له أن يكون هو الأثير هنا لخطورة الموضوع، وهو النَّهي عن عبادة أحدٍ غيرِ الله تعالى، وقصرُ العبادة عليه وحده سبحانه.

سرُّ التَّصريح باسمِ الجلالة:

أوثِر التَّعبير باسم الجلالة في قول الله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ دونَ غيرِه؛ لِما له من مهابةٍ وجلال، في موقفٍ لا يحتمل إلّا هزَّ القلوب الجاحدةِ وتخويفَها من تقديم عبادة غير الله وإيثارها عليها.

الحديث عن العبادة يَستَلزِم التَّأثير، ويستدعي التَّخويف

نكتةُ فصلِ الجملة:

النُّكتة في فصلِ جملة القول عن سابقتها: ﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ هو كونُها مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا، كأنَّه قيل: (فماذا قالت عادٌ وثمودُ حين جاءتهم الرُّسُل؟)، فكان الجواب: ﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾، فبَينَ الجُملتَينِ المفصولتين شِبهُ كمالِ اتِّصال.

الفصلُ لاستئنافِ البيانيّ

فائدةُ التَّعبير بـ﴿قَالُواْ﴾:

في إيثار التَّعبير بفعل القول مُسنَدًا إلى ضمير الجمع: ﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ إشعارٌ بأنَّ المدعوّين من عادٍ وثمودَ - على اختلافِ وجودهم زمانًا ومكانًا - كانوا على مستوًى واحدٍ في ضعف التَّفكير والنَّظر في الأدلَّة، وأنَّ أفرادَ كلِّ قبيلةٍ منهما كانوا على قلبِ رجلٍ واحدٍ في إنكار الرِّسالة ومعارضة المرسَلين، وأنَّ هذا قد أدَّى إلى توحيدِ قولهم، فكأنَّهم قالوا بلسانٍ واحد: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾.

اشتراك أهل الكفر والضَّلال في عقم التَّفكير وضعف النَّظر في الأدلَّة مهما اختلفوا زمانًا ومكانًا

سرُّ التَّعبير بـ﴿لَوۡ﴾:

﴿لَوۡ﴾ في قول الله تعالى: ﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ حرفُ شرطٍ غيرِ جازم، يدلُّ على امتناعِ وقوع الجزاء لامتناع وقوع الشَّرط، فهو هنا يدلُّ على امتناع وقوع إنزال الملائكة لامتناع مشيئة الإرسال، والمعنى على زعمِهم: (لو شاءَ الله إرسالَ الرُّسُلِ؛ لأنْزَلَ ملائكةً)[1]،

(1) السمين، الدر المصون: 9/ 516.

أي: (لكنَّه لم يشأ)، فتضمَّن كلامُهم قياسًا استثنائيًّا[1]، تركيبُه: (لو شاء ربُّنا أن يُرسِل رسولًا؛ لأرسل ملائكةً يُنَزِّلهم من السَّماء، لكنَّه لم يُنَزِّل إلينا ملائكةً، فهو لم يشأ أن يُرسِل إلينا رسولًا)[2].

قياسُ المكذِّبين للرُّسل فاسدٌ، واحتجاجُهم بالأدلَّة العقليَّة باطل

علَّةُ التَّعبيرِ بفِعلِ المشيئة:

أوثِر التَّعبير بالمشيئة دون الإرادة في قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾؛ لأنَّ المشيئةَ إنَّما تتعلَّق بما جاء وقتُه بلا تراخٍ في حصوله، بخلاف الإرادة فإنَّها تحتمل التَّراخيَ، فالإرادَة تكون لِما يتراخى وقته، ولما لا يتراخى، والمشيئة لما لمْ يتراخَ[3]، وعلى هذا فالمشيئة تقتضي الوجودَ، ولذا يُقال: ما شاء اللّه كان، وما لم يشأ لم يكن، بخلاف الإرادة فقد لا تقتضيه.

التَّعبير بالمشيئة أقوى؛ لأنَّها تتعلَّق بما جاء وقتُه بلا تراخٍ

بلاغةُ حذفِ مفعولِ المشيئة:

مفعولُ المشيئة في قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ محذوفٌ لدلالة السّياق عليه[4]، وقد قدَّره الزَّمخشريُّ: (لو شاء ربُّنا إرسالَ الرُّسُل؛ لأنزل ملائكة)[5]، في حين قدَّره أبو حيّان: (لو شاء ربُّنا إنزالَ ملائكةٍ بالرِّسالةِ منه إلى الإنسِ؛ لأنزَلهم بها إليهم)، وهذا أبلَغُ عنده في الامتناع من إرسالِ البشرِ؛ إذ عَلَّقوا ذلك بإنزال الملائكة، وهو لم يَشَأْ ذلك، فكيف يشاء ذلك في البشر؟[6] ورجَّح السَّمين تقديرَ الزَّمخشريِّ، وذكر أنَّه أوقَعُ معنًى، وأخلصُ من إيقاع الظّاهرِ موقعَ المُضمرِ؛ إذ يَصيرُ التَّقديرُ: (لو شاءَ إنزالَ ملائكةٍ؛

زعمَ المكذِّبون بتكبُّرٍ وعنادٍ أنَّ الله لو كان مُرسلًا إليهم؛ لأنزل ملائكةً رُسُلًا

(1) القياس الاستثنائي: ما يكون عين النَّتيجة أو نقيضها مذكورًا فيه بالفعل، كقولنا: إن كان هذا جسمًا فهو متحيّز، لكنَّه جسم، ينتج أنّه متحيّز، وهو بعينه مذكور من القياس، أو يقال: إن كان هذا جسمًا، فهو متحيز، لكنَّه ليس بمتحيّز، ينتج أنَّه ليس بجسم، الجرجاني، التعريفات ص: 181.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 255.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 124.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 255.

(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 192.

(6) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 294، والسمين، الدر المصون: 9/ 517.

لأنزلَ ملائكةً)[1]، ولمّا كان تقدير الزَّمخشريِّ هو الأثير عند العلماء - مع مخالفته للقاعدة في حذف فعل المشيئة - بيَّن ابنُ عاشور محلِّلًا ومعلِّلًا أنَّ هذا حذفٌ خاصٌّ غيرُ حذف مفعولِ فعل المشيئة الشّائع في الكلام؛ لأنَّ ذلك فيما إذا كان المحذوفُ مدلولًا عليه بجواب (لو) كما في قول الله تعالى: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: 149]، ونكتتُه الإبهام ثمَّ البيان، وأمّا الحذف في آية فصِّلت؛ فهو للاعتماد على قرينة السّياق والإيجاز، وهو حذفٌ عزيزٌ لمفعول فعل المشيئة[2].

وجهُ إيثار اسمِ الرَّبِّ مُضافًا:

تعلُّل الكفّارِ كاذبٌ في عدم تصديق المرسَلين من البَشَر

أوثِر التَّعبير بلفظ الرُّبوبيَّة في قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾؛ لما يقتضيه إنزال الملائكة - لو حصل - من إبرازِ معاني الرُّبوبيَّة، الَّتي من جملتها التَّربيةُ، وهي من مهامِّ بعْثِ الرُّسل، أو إنزالِ الملائكة حسبما زعموا، وإنَّما أضافوا اسمَ الرَّبِّ إلى ضميرهم الجمعيِّ؛ إيهامًا منهم بأنَّهم غيرُ معاندين لفكرة اتِّباع المرسَلين، وأنَّهم حريصون على ذلك، لكنَّ مجادلتَهم كامنةٌ في عدم قناعتهم بأنَّ الله يُرسِل رسولًا من البشر، فلو أنَّهم أُنزِلوا على شرطهم - أي: أن يكون المرسَلون من الملائكة - لسارعوا إلى الإيمان بهم، وهذه الدَّعوى سنَّةٌ متَّبعة عند أهل الكفر، قد عبَّر عنها القرآنُ، وردَّ عليها في عددٍ من آياته، منها قول الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء: 94 - 95]

(1) السمين، الدر المصون: 9/ 517.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 255.

نكتةُ التَّعبيرِ بفعل الإنزال ماضيًا:

حتميَّةُ تحقُّقِ الإنزال بالمشيئة الرَّبّانيَّة

أوثِرَ فعلُ الإنزال في قولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ ماضيًا؛ للدَّلالة على تحقُّق الإنزال وفقَ المشيئةِ، فلو شاء اللهُ إرسالَ رسولٍ إلى البشر؛ لتحقَّق ذلك بإنزالِ مَلَكٍ بالرِّسالة؛ "لأنَّ إرسال الملائكة إلى الخلق أفضى إلى المقصود من البعثة والرِّسالة"[1]، فهذه فِريَتُهم الَّتي اعتادوا سَوقَها والتَّعلُّلَ بها؛ لتسويغ كفرهم، وقد ردَّها القرآن مرارًا.

وجهُ تنكيرِ ﴿مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ وجمعِه:

تعظيمُ قَدرِ الملائكة منبئٌ عن تعظيم قَدرِ الرِّسالة

السِّرُّ في تنكير مفعولِ الإنزال في قولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ هو تعظيمُ قدرِهم، المنبئُ عن تعظيم قدر الرِّسالة، على معنى: (لو شاء اللهُ إرسالَ رسالةٍ إلى خلقِه؛ لكانت رسالةً عظيمةَ الشَّأن، ولاختارَ لها ملائكةً لا بشرًا)؛ تعظيمًا لشأن الملائكة، وانتقاصًا من شأن البشر، وجُمِع لفظُ ﴿مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ باعتبار أفراد الرُّسل؛ وأمّا إفراده في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾ [الأنعام: 8]؛ فلأنَّه أريدَ به نبيٌّ واحدٌ، هو محمَّدٌ ﷺ[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالإنزال:

استقرارُ علوِّ مكانةِ الملائكة في عقول البشريَّة

جاء التَّعبير في قول الله تعالى: ﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ بإنزال الملائكة دون إرسالهم، لِما هو مستقرٌّ في العقول والأذهان - حتّى عند هؤلاء الكفّار - بأنَّ الملائكةَ إنَّما تكونُ في السَّماء، وإرسالُها يقتضي الإنزال، وهذا ما لم يُنكِره القرآن عليهم؛ إذ قال حكايةً لدعواهم وردًّا عليها: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٤ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ٩٥﴾ [الإسراء: 94 - 95]، فلم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 551.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 17/ 141.

يُنكِر عليهم دعوى الإنزالِ حين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾، ولكن أنكَر عليهم أن يكونَ المُرسَل إليهم من الملائكةِ لا من البشر.

معنى فاءِ ﴿فَإِنَّا﴾:

كفرُهم - في زعمهم - نتيجةُ قياسٍ عقليٍّ

الفاء في قولهم: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ فصيحةٌ؛ للإشارَة إلَى النَّتيجة، كأنَّه قيل: (لو شاء ربُّنا إرسالَ رُسُل؛ لأنزلَ ملائكةً، لكنَّه لم يُنزِل ملائكةً، فينتج أنَّه تَعالَى لم يشأ ذلك، فضلًا عن إرسال الرُّسل من البشر)[1]، على طريقة القياس الاستثنائيِّ.

سرُّ توكيدِ الجملة:

التَّوكيدُ علامةُ إصرارِهم على التَّكذيب

سرُّ توكيدِهم النَّتيجةَ: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ - الَّتي ساقوها بناءً على قياسهمُ الفاسدِ - بـ(إنَّ) والجملةِ الاسميَّة: هو الدَّلالة على إصرارهم على الكفر، متعلِّلين بما ظنّوه دليلًا على كذِب الرُّسُلِ من البشر، ﷺ.

توجيهُ عَودِ الضَّمير:

الضَّميرُ (نا) في قولهم: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ يعود إلى عادٍ وثمودَ باعتبار أفرادِ القبيلتَين، فأوثِر ما يدلُّ من الضَّمائر على الجمع؛ ليَشمَل مجموعَ أفرادهم، ويلوِّح إلى اجتماعهم.

سرُّ إيثار الموصول الاسمي (ما) دون (الذي):

من شِدَّة جحودِهم أن كفروا بمضامينِ الرِّسالة، بل أنكروا الإرسالَ نفسَه

(ما) في قولهم: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنى (الذي)، وسبب إيثارِه في التَّعبير على (الذي) إفادتُه العمومَ مع الاختصار؛ فـ(ما) يُعَبَّر بها عن كلِّ شيءٍ دونَ تعيين، بخلاف (الذي)، فإنَّه يدلُّ على مُعيَّن، والمعنى: (فإنّا كافرون بكلِّ ما جئتم به)، من الدَّعوة إلى التَّوحيد، وإفرادِ الله بالعبادة، وما يتبع ذلك من الشَّرائع، إلى آخرِ ما تتضمَّنُه الرِّسالاتُ الإلهيَّة في تصحيح

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 17/ 140.

مسار الاعتقاد، وفي شأن تنظيم العلاقات بين البشر، وإذا أعلنوا كفرَهم بمضمون الرِّسالة، فهو كفرٌ بالرِّسالة نفسِها، وقيل: بأنَّ (ما) هنا مصدريَّة، أي: (فإنّا بإرسالكم كافرون)، وقولَه: ﴿بِهِۦ﴾ توكيدٌ لذلك المصدر المؤوَّلِ بإرسالِكم، فالضَّمير المجرورُ عائدٌ إليه[1]، وعلى هذا يكون ذلك إعلانًا منهم بالكفر بأصل الإرسال.

نكتةُ التَّعبيرِ بالإرسال:

التَّهكُّم والاستهزاءُ بحكاية كلامِ الأنبياء مبالغة في التَّكذيب

جاء التَّعبيرُ بفعل الإرسال مبنيًّا للمفعول في قولهم: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، لا لأنَّهم مقرّون بأصل الرِّسالة، وأنَّهم رسلٌ، لكنَّهم ليسوا مرسَلين من الله كما قيل[2]، بل لحكاية كلام الرُّسل، أو على سبيل الاستهزاء، ومثلُه قول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء: 27][3]، وفي التَّعبير بالإرسال مُبالَغَةٌ في الإنكار والتَّكذيب، حيث أثبَتوا عَلَى زعمهم عدمَ المشيئة في قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾، ثم فرَّعوا عَلَى ذلك قولهم: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، وهذا أبلغ في الإنكار من مجرَّد قولِهم: (فإنّا بكم كافرون)[4].

توجيهُ ضمير الخطاب:

تغليبُ الحاضر على الغائب أدخلُ في بيان قلَّةِ أدبهم

ضمير الخطاب في قولهم: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ هو لهودٍ وصالحٍ ﷺ ومن دعا من الأنبياء إلى الإيمان، وغُلِّب الخطابُ على الغَيبة على نحو قولك: أنت وزيدٌ تقومان[5]، ففيه تغليبٌ للمخاطَب الحاضر - وهما هود وصالح ﷺ - على الغائب غيرِ الحاضر من بقيَّة الرُّسل الَّذين كانوا قبلَهم، الَّذين يشمَلهم وصفُ الرُّسل في قوله سبحانه: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾، فكأنَّهم قالوا: إنّا

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 295، والسمين، الدر المصون: 9/ 517.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 161.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 552.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 17/ 140.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 295.

كافرون بكما، وبِمَنْ دعوتمونا إلى الإيمان به مِنَ الرُّسل سِواكُما[1]، وهذا التَّغليب "أدخلُ في بيان قلَّة أدبهم"[2].

دلالة ﴿بِهِۦ﴾:

بشريَّة الرُّسل علَّة إنكار الرِّسالة ومضامينها في زعم المكذِّبين

الباء من ﴿بِهِۦ﴾ في قولهم: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ للملابسة والمصاحبة، وعلى أنَّ (ما) مصدريَّةٌ، فالجارُّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ توكيدٌ لإنكار كونِهم مرسَلين من الله؛ لأنَّ الله - في زعمهم - لا يُرسِل بشرًا، وإنَّما يُنزل ملائكةً، فالضَّميرُ عائدٌ على المصدر المؤوَّلِ بالإرسال، والمعنى: (فإنّا بإرسالكم به كافرون)[3]، أي: (نحن كافرون بما تزعمون خاصَّةً، من أنَّكم أُرسِلتم إلينا، لا بغير إرسالكم من إنزال الملائكة مثلًا؛ لأنَّ قياسنا قد دلَّ على أنَّه تعالى لم يشأ الإرسال، فأنتم لستم بمرسَلين عنه؛ لأنَّكم بشرٌ لا ملائكة)[4].

وعلى أنَّ (ما) هنا موصولةٌ بمعنى (الّذي)، فالهاء في ﴿بِهِۦ﴾ ضميرٌ عائد على (ما) لربط الصِّلة بالموصول، أي: (نحن كافرون بالَّذي أُرسلتم به)، وقيدُ كفرِهم بالموصول وصِلَتِه لتأكيد موقفهم من تكذيب مضامينِ الرِّسالة، من الأمر بالتَّوحيد والتَّحذير من الشِّرك وسائر الشَّرائع والأوامر والنَّواهي، وإذا كانوا كافرين بمضامين الرِّسالة، فإنَّما ذلك لكفرهم بالإرسال نفسه.

سرُّ تقديم أشباهِ الجُمَل:

زعموا أن لو أنزل اللهُ ملائكةً رُسُلًا؛ لآمنوا بهم، ولصدَّقوهم

تقديمُ قولِهم: ﴿بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ على الخبر ﴿كَٰفِرُونَ﴾ للاختصاص، فالمعنى: (إنّا كافرون بما تزعمون خاصَّةً - من

(1) صديق خان، فتح البيان: 12/ 235.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 161.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 295.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 161.

إرسال الله بشرًا - لا بغير ما أُرسِلتم به، من إنزال ملائكةٍ مثلًا)[1]، مع ما في هذا التَّقديم أيضًا من رعاية الفواصل.

دلالةُ اسمِ الفاعل:

إصـــــرارٌ على التَّكذيب الأقبح، وكـفـرٌ ثـابـتٌ لا يتزحزح

دلَّ إيثارُ التَّعبيرِ بصيغة اسمِ الفاعل من الكُفْر في قولهم: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ على إصرارهم على الكفر، وأنَّهم ثابتون عليه وراسخون، بحيث لا يتزَحزَحون عنه؛ لما استقرَّ في نفوسهم مِن أنَّ الرُّسُلَ يجب أن يكونوا ملائكةً لا بشرًا.

دلالةُ الاسمِ المجموع:

اتِّـفـاقُ كلمتِهم على الكُفر

يدلُّ إيثارُ الجمع في اسم الفاعل من الكفر في قولهم: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ على أنَّهم كانوا مُجمِعين على هذا القول، فإنَّه - ولو اقتصرت حقيقةُ القول على بعضهم، من الزُّعماء والرُّؤساء المتبوعين مثلًا - حَظي هذا الرّأي بموافقة الجميع، فنُسِب القولُ إلى مجموعهم، وكأنَّه وقعَ من كلِّ فردٍ.

بلاغةُ الكناية في الجملة:

بعد قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ - وهو قياسٌ استثنائيٌّ تضمَّن تكذيبَ الرُّسُل - جاء التَّصريحُ بالكفر، والإصرارُ على الجحود في قولهم: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، وهو أيضًا كنايةٌ عن التَّكذيب[2].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

المجيءُ والإتيان:

مـجـيءُ الـرُّسُـل إلى قوم المكذِّبين مقرونٌ بالشِّدَّة

يدلُّ لفظُ المجيء على الشِّدَّة، بخلاف الإتيان، فهو مجيء كذلك، ولكن بسهولة[3]، فالتَّعبيرُ بالمجيء يدلُّ على أنَّ المعبَّرَ عنه به هو أمرٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 161.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 255.
(3) الراغب، المفردات: (جاء).

شديدٌ صعب، أو هو أصعبُ ممّا يكون التَّعبير فيه بالإتيان[1]، وفي هذا الفرق تعليلٌ لإيثار التَّعبير بالمجيء دون الإتيان في قول الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ لأنَّ سياق الكلام عن قوم عادٍ وثمودَ الَّذين كذَّبوا رسولَيهما هودًا وصالحًا ﷺ؛ فلشدَّة كفرهم ومعارضتهم للرَّسولَين، ولشدَّة ما نالهم من عقاب الصّاعقة الَّتي استأصلتهم؛ كان التَّعبيرُ بالمجيء أنسبَ.

تحقُّقُ إرسالِ الرُّسل يناسبه لفظُ المجيء

والمجيء يقال اعتبارًا بالحصول والتَّحقُّق، في حين يُعبَّر بالإتيان اعتبارًا بالقصد، وإن لم يكن منه الحصول[2]، والرُّسُل في قول الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ قد تحقَّقَ إرسالُهم، وهو ما يناسبه لفظُ المجيء.

الإرسال والبعث:

الرسولان هودٌ وصالحٌ (ﷺ) كانا محمَّلين برسالة إلهيَّة إلى قوميهما

التَّعبير بالإرسال يقتضي تحميلَ رسالةٍ أو خبرٍ، تقول: أرسلت فلانًا إلى فلان؛ إذا حمَّلته برسالة إليه، أو حمَّلته خبرًا وما أشبه ذلك، وأمّا التَّعبير بالبعث؛ فإنَّه لا يقتضي ذلك بالضَّرورة[3]، ويبدو من تتبُّع مفردةِ البعث مع الرُّسُل في الكتاب العزيز أنَّها تُستَخدم حين يريد القرآنُ التَّعبيرَ عن تكليف رسولٍ برسالة بعد فترةٍ متطاولةٍ من الرُّسل السّابقين؛ ولذلك تُعضَّد أحيانًا بـ(ثمّ) الدّالَّة على التَّرتيب والتَّراخي، وبكلمة (بعد)، كما في قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [الأعراف: 103]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ [يونس: 74]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [يونس: 75]، ففي ذلك إيحاءٌ وإيماءٌ إلى ما ذُكِر، كما توحي بذلك أيضًا مفردةُ

(1) السامرائي، لمسات بيانية، ص: 97.
(2) الراغب، المفردات: (جاء).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 289.

البعث في استعمالها خارجَ هذا السّياق إلى سياق البعث بعد الموت، فإنَّه يكون بعثًا من رُقاد، كما يُعبِّر عنه قولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [يس: 52]، وفي إخبار القرآن عن رقاد أهل الكهف في كهفهم أكثرَ من ثلاثمئة سنةً: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا ١٢﴾ [الكهف: 12]، ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الكهف: 19].

فالتَّعبيرُ بالإرسال دون البعث في قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ توجيهُه أنَّ الرَّسولَين الكريمين هودًا وصالحًا ﷺ كانا محمَّلَين برسالةٍ إلهيَّةٍ إلى قومَيهما عادٍ وثمودَ، ولم يكنِ الغرضُ من الآية الإخبارَ عن فترةٍ دونَ وحيٍ قبلهما، وهذا ما سوَّغ التَّعبيرَ بالإرسال وإيثارَه على التَّعبير بالبعث.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والخمسون،
سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 52 ، 818 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-48-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 52 : المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-48-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0346315 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"